

مدينة سيدي بلعباس واللفيف الأجنبي

أ. حمادي مصفى

أستاذ مساعد، قسم التاريخ،
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
المركز الجامعي معسكر

سيدي بلعباس مدينة صغيرة غنية بالقمح والكروم والزيتون، إلا أن الكثير من المؤرخين يعتبر غناها مصدره اللفيف الأجنبي، وعليه فلا يمكننا كتابة تاريخ هذه المنطقة دون الحديث عن فيلق أجنبي ساهم في بروزها منذ نشأتها إلى غاية الاستقلال. في 10 مارس 1831م وقع "لويس فيليب" (1830م - 1848م) بباريس مرسوما ملكيا أسس من خلاله جهاز عسكري، حيث يذكر في مادته الأولى أنه يتشكل من الأجانب ويطلق عليه اسم "اللفيف الأجنبي".⁽¹⁾

يتمثل مثلما يبين اسمه في وحدة عسكرية كبيرة، متكونة غالبا من مجندين ومتطوعين من مختلف الأجناس، حيث أن الفرنسيين لا يمثلون إلا العشر فقط. إلا أن كل الضباط السامين وقيادي الفيالق هم من جنسية فرنسية، وكى يجند الشخص، عليه أن يوقع عقد مع الجهة المعنية لفترة معينة، مقابل توفير للمجنّد اللباس، والمرقد، والنقل، والسلاح، والأجر. اللفيف مرتزق Mercenaire يخدم حكومة أجنبية وملتزم بإتباع النظام، ويقوم بالحرب في أي مكان يطلب منه، وشعاره "شرف ووفاء" Honneur et Fidélité. لا يعتبر الأجر الحافز الوحيد للمجنّد، بل يتم تبرّته من جرائمه السابقة نهائيا بمجرد التجنيد، فإذا كان المجنّد قد قام بجريمة خطيرة قبل انضمامه إلى اللفيف، تشطب مباشرة بعد تجنيده، وبذلك ينجمون القضاء، وتتم حمايته من كل شيء حتى من هويته وتبقى كل معلوماته سرية.⁽²⁾

بعد الحرب العالمية الأولى (1914م - 1918م) كانت البطالة أحسن مجنّد للفياف الأجنبي، والجوع والمرشد الذي يدفع الشخص قهرا نحو عمل يضمن له غذاء.⁽³⁾ مع مرور الوقت تألف اللفيف الأجنبي من حوالي 42 جنسية منهم 40% إلى 70% ألمان، وبعض الوحدات تضم حتى 92% ألمان، بسبب الوضعية الاجتماعية التي عرفتها ألمانيا بعد الحرب، فاللفيف فسيفساء بشري من الثقافات واللغات.⁽⁴⁾

منذ 18 جوان 1830م بدأت القوات الفرنسية تنزل بسيدي فرج، واحتلت هذا البلد، وبما أن مرسوم 10 مارس 1831م يشترط عدم استخدام اللفيف الأجنبي إلى خارج المجال القاري للملكة، فقد شكلت الجزائر المكان الحقيقي لهذا الجيش، وأصبح تاريخه مرتبط بهذا البلد.⁽⁵⁾ لم ينتقل اللفيف إلى الجزائر إلا سنة بعد ذلك أي 1832م حيث بدأت المقاومة تنتظم ضد الاحتلال تحت قيادة "الأمير عبد القادر" وبمشاركة قبائل بني عامر.⁽⁶⁾

كون العقيد "ستوفال" Stoffel (من أصل سويسري) مع جنود وصف الضباط (قدماء عملوا في السابق في الفيالق السويسرية)، فيلق اللفيف الأجنبي الذي اشتمل في 1831م على سبعة

كتيبات Bataillons وثمانية سرايات Compagnies ، يقدر عدد الكتيبة بإطاراتها بـ 895 رجل ويتوزع اللفي في الأراضي المحتلة الجزائرية كالتالي :

الكتيبة الأولى، والثانية، والثالثة والخامسة بحامية Garnison العاصمة، الكتيبة الرابعة تحتل وهران، أما السادسة بعنابة، وتتكون أسلحتهم من بندقية، مجرفة Pelle والمعمل Pioche. في 24 جوان 1832م يحصل اللفي الأجنبي على أول راية له من أيدي العقيد "كومب" Combes بالجزائر العاصمة، المتكونة من ثلاث ألوان مدون عليها بأحرف ذهبية : Le Roi des Français à la Légion Etrangère⁽⁷⁾

ابتداء من سنة 1840م يصبح اللفي الأجنبي جزءا من القوة العسكرية التي تحارب ضد "الأمير عبد القادر"، وجزءا من القوة التي حاصرت مدينة مليانة أين خسر اللفي 462 من مجموع 750 رجل.⁽⁸⁾

في سنة 1854 م يتجه الفيلق الأول والثاني لخوض حرب القرم، إلا أنه بعد أيام في تركيا يفقد اللفي الجنرال "كاربوسيا" Carbuccia بسبب الكوليرا التي توغلت في معسكرهم، وتسببت في خسائر كبيرة، ثم يقتل العقيد "سرانتون" Sarranton من الفيلق الثاني، ووصلت خسائر الفيلق إلى أربعة ضباط و175 جنديا من اللفي، وزادت هذه الحملة في القرم اللفي الأجنبي سمعة.⁽⁹⁾

إن مقتل العقيد "فينو" Vienot من الفيلق الأول، في ماي 1854 "بسيبستول" Sebastopol (القرم)، و وفاة الجنرال "شابيار" Chambière الذي قتل على رأس الفيلق الثاني بماجنطة Megenta (إيطاليا)، جعل السلطات الاستعمارية تخلد أسمائهما في مشاريع مستقبلية بسيدي بلعباس، فمنح اسم "شابيار" على طريق هام بالمدينة، بينما أطلق اسم "فينو" على الثكنة الرئيسية للفي الأجنبي. إلا أن حدثا عسكريا عاديا بالمكسيك، سيوظف في التاريخ ليصطنع أسطورة، تسمح بتوحيد صفوف اللفي عبر أجياله، وعليه كان من الضروري تزييف الحقيقة التاريخية التي يمكن ذكرها بإيجاز:

في منتصف القرن التاسع عشر كان المكسيك مستقلا منذ 1820م، فطمعت فيه كثير من الدول، حيث استولت الولايات المتحدة الأمريكية على المكسيك الجديد وكاليفورنيا سنة 1846م. في عام 1861م تقوم فرنسا، بريطانيا وإسبانيا بغزوها، وذلك من أجل فرض الأرشيديوق "ماكسيميليان" Maximilien من النمسا على رأس المكسيك، وعليه ترسل فرنسا اللفي الأجنبي، وتقوم بعرض عسكري "ببويبله" Puebla، ثم بمكسيكو في 1863م، وذلك قبل مواجهة المقاومة الشعبية في 30 أفريل 1863م "بكامرون" Camerone. واجه 62 عنصرا من اللفي الأجنبي المقاومة مدة عشر ساعات التي تكونت من 1800 مكسيكي الذين دحروا كل عناصر اللفي بقتل 28 وجرح 18 واعتقال 16. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: كيف تم

تعدادهم بهذه الدقة المفصلة ؟ ولماذا اختيرت هذه المعركة من كل المعارك التي شارك فيها اللفيف ؟ الجواب واضح: فهي عملية تضخيم الحدث لجعل واقعة "كامرون" تخدم مصالح اللفيف مستقبلا وتوحد صفوفهم لاختلاف جنسياتهم وثقافتهم، حيث يحتفل بها كل سنة في المدينة الأوروبية بسيدي بلعباس.⁽¹⁰⁾

عرفت الجزائر خلال القرن التاسع عشر، أكثر من عشرين انتفاضة أو ثورة، وفي كل واحدة منها نجد اللفيف الأجنبي في الصفوف الأولى، لفرض النظام الاستعماري وتعمير المنطقة، واستغلال ثروات البلاد، فاستخدام اللفيف كان مثمرا بالنسبة للاستعمار.⁽¹¹⁾ إن تاريخ الجزائر يؤكد على دور اللفيف الأجنبي في الاستيطان السكاني، بعد الدور الذي قام به أثناء الغزو، فبمجرد نزوله في 1832م واجه المقاومة الجزائرية في عدة مناطق من التراب الوطني: قسنطينة 1837م، مستغانم 1839م، موزاية 1840م، قليعة 1841م، زعاطشة 1849م، وكانت هذه الفترة دعما قويا للاستيطان في الجزائر بصفة عامة وبسيدي بلعباس بصفة خاصة، التي تم بها إيداع الفيلق الأول من اللفيف الأجنبي في سنة 1852م.⁽¹²⁾

يضم اللفيف الأجنبي في صفوفه جيش محترف من الحرف المتنوعة، التي سوف يستخدمونها خلال إقامتهم بسهول مكرة، وذلك من أجل إنشاء وتطوير مراكز استيطانية بالمنطقة، وقد استخدم اللفيف في البداية من أجل حراسة قبائل بني عامر حليفة الأمير عبد القادر قبل غزوالسهول الخصبة لمكرة، ومساعدة المستوطنين على الإقامة في المنطقة، التي أصبحت همزة وصل بين وهران ومعسكر من جهة، ووهران وتلمسان من جهة أخرى.⁽¹³⁾

وعليه أهم المهمات التي أوكلت إلى اللفيف كانت التهيئة Aménagement، الصيانة entretien، والمراقبة contrôle لهذه المنطقة التي شرع فيها ابتداء من سنة 1842م، وانتهت العملية في سنة 1845م، أي قبل تأسيس المركز الاستيطاني لسيدي بلعباس سنوات بعد ذلك أي 1848م ثم تعيين لجنة رسمية برئاسة "برودون" Prudon لوضع مخطط وإقامة مركز استيطاني مستقبلا، حيث سيكون اللفيف الأجنبي حاضرا بقوة في هذه اللجنة بشخصية "إيشكار" Echaker الجراح. ضمن هذا الموبالتالي فلللفييف ب 16 هكتار من مجموع 42 هكتار المحددة من أجل مباني الثكنة، ويبدأ الإنجاز على يد الفرق الأجنبية، ففي عشرة السنوات (1848م - 1857م)، يتم إنهاء تحصينات المدينة على علو خمسة أمتار وبطول 03 كلم، أربعة أبواب كبيرة (1854م - 1855م)، المستشفى العسكري 1851م، كما أنجزت بنايات مدنية بميزانية عسكرية على أيدي اللفيف الأجنبي، إضافة إلى الطرق الاستيطانية المؤدية إلى مزارع سيدي لحسن ومولاي عبد القادر، كما غرست على حوافها أكثر من 40.000 شجرة، وبالتالي فلا يوجد أي مركز استيطاني لم يشارك فيه عنصر اللفيف. في سنة 1851م عندما استقدمت 45 عائلة ألمانية بمنطقة سيدي لحسن ذات الأراضي الخصبة، تم تعيين سريتين

من اللّيف الأجنبي لحماية ومساعدة هذه العائلات على الإقامة. نفس الشيء حصل في سيدي خالد، وتيرة، وبن يوب، وبوخنيفيس، والضاية، وتسالة، حيث استخدم اللّيف في مختلف الأشغال كإقامة الطرق، المساكن، خطوط الهاتف وغيرها.⁽¹⁴⁾

إلى غاية سنة 1856م، فإن الفرق الأجنبية، ضمنت بمفردها عملية البناء وتسيير المدينة، يقول الجنرال "بليسييه" Pelissier قائد مقاطعة وهران متوجها للفرقة الأجنبية قائلا: " في سيدي بلعباس، جعلتم من المخيم مدينة مزدهرة، و مكانا معزولا، ومنطقة خصبة، أي صورة من فرنسا"⁽¹⁵⁾

تعتبر سيدي بلعباس مهد اللّيف الأجنبي، فالنجاح الذي حققه في إسبانيا، وتونكين، وكمبودج، والجزائر، وتونس، والمغرب، والسودان، ومدغشقر والمكسيك، جعل الكثير من الشخصيات الفرنسية تهتم كثيرا بهذا الفيلق الأجنبي، ففي سنة 1903م قام رئيس الجمهورية الفرنسية "إميل لوبي" Emile Loubet بزيارة إلى سيدي بلعباس حيث جال في أروقة القاعة الشرفية⁽¹⁶⁾ للّيف الأجنبي وعبر بفخر عن إنجازاته الكثيرة⁽¹⁷⁾

في سنة 1927م أصبح العقيد "رولي" Rollet أب اللّيف الأجنبي والسيد المطلق بسيدي بلعباس، وسطرت في هذه الفترة عدة مشاريع لتخليد إنجازات اللّيف في مختلف مراحل التاريخ، واتفق على وضع نصب تذكاري⁽¹⁸⁾ تخليدا للذين قتلوا في المعارك، وأوكل العمل الفني للنحات الباريسي "بوركي" Pourquet الذي يعمل على نظرة الرسام "ماهوت" Mahut، كما جاء العمل تخليدا لاحتفالات الذكرى المئوية للاحتلال، وعليه فالعمل يسترجع حملات اللّيف في العالم من سنة 1831م إلى 1931م. بدأ النحات عمله في باريس في 1929م وحصل العقيد "رولي" من الحاكم العام للجزائر بتفويض تام من أجل استخراج المواد الأولية من منطقة سيدي حمزة (على بعد 75 كلم من سيدي بلعباس)، حدد تاريخ 30 أفريل 1931 م كتاريخ للافتتاح، إلا أن قبل بذلك كان من الضروري جمع 600.000 فرنك للمشروع، فقامت الفرقة الموسيقية التابعة للّيف برئاسة السيد "أكا" Aka بجولة في شمال إفريقيا فقدمت هبات ومساعدات من حوالي 30.000 مجمع وجمعية وأتمت تمويل المشروع.⁽¹⁹⁾

كانت الفرقة الموسيقية تشارك في الحفلات خارج المناسبات الرسمية، تطرب خلالها العائلات الأوروبية في المسرح البلدي وساحة كارنو.⁽²⁰⁾

في سنة 1901م تأسس اتحاد الجمعيات لقدماء اللّيف الأجنبي Union des Sociétés d'Anciens Légionnaires مقرها مرسيليا، عربونا لهم لما قدموه لفرنسا الاستعمارية طيلة حياتهم، حيث يتوفر هذا الاتحاد على كل وسائل الراحة التي يبحثون عنها.⁽²¹⁾

أما في سيدي بلعباس فقد أنجز نادي اللّيف قبل الحرب العالمية الثانية، أستعمل كمسرح وسينما ولكل وسائل الترفيه، ويمكن أن يحتوي على أكثر من 1500 شخص، بجانبه

مسيح، إضافة إلى مزرعة اللفييف التي تقع على بعد كيلومترات من طريق "رأس الماء". أثناء فترة حكم رئيس البلدية "بلات" Bellat، كانت علاقته باللفييف الأجنبي وطيدة، وتمت عدة لقاءات بينهما أهمها: اجتماع مجلس العام لقدماء اللفييف الأجنبي، معه في 25 مارس 1933م، ثم الإشادة والصلابة على الشخصيات التاريخية للفييف الأجنبي ودورهم في التاريخ الفرنسي منهم: Gilabert، Suzanne، Szel، Kepler، Dussel، Piquet، Ritter، Hochmuth (22). كما منح "بلات" قطعة أرض إلى السيد "جولي" Joly رئيس جمعية قدماء اللفييف الأجنبي بسيدي بلعباس، ما جعل والي وهران في 1953م يعطي إشارة بناء مقر لمتقاعدي اللفييف وكان الافتتاح يوم 07 أبريل 1957م. تخليدا لهم أيضا أسس العقيد "قولتيه" Gaultier رئيس الفيلق في 1950م مجلة اللفييف الأجنبي Kepi blanc التي تصدر شهريا وتتحدث عن إنجازاته عبر تاريخ فرنسا، والدور الذي يلعبه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. كما أنجزت على الساحة الفنية عدة أفلام تتناول مواضيع مختلفة حول اللفييف الأجنبي وبطولاته، أهمها فيلم بعنوان "الرقيب أكس" Sergent X في سنة 1931م، صور من طرف مخرج روسي وفيلم "واحد من اللفييف" Un de la Légion في سنة 1936م أنجز من طرف "كريستيان جاك" Christian Jacques بمشاركة الفنان Fernandel، حيث نجد بعض المشاهد قد صورت بحي Vienot وساحة Arnot وبعض شوارع سيدي بلعباس. (23)

في الجانب الأمني استطاع اللفييف أن يقوم بدور هام في استتباب الأمن بسيدي بلعباس، كأحداث فبراير وأوت 1935م بين الأوربيين التابعين للحزب الوطني المتطرف والأهالي، واضطرابات مارس 1937م، فقد استتجد المستوطنون باللفييف لوقف الكارثة والحفاظ على أموالهم وممتلكاتهم بالمنطقة. (24)

انتشر اللفييف في شوارع المدينة في أكتوبر 1943م لوقف مظاهرات الاحتجاج التي قام بها الأهالي عندما اعتقل أعضاء المندوبية المالية "فرحات عباس" و"السايج عبد القادر" (25) وحسب "بيار ماك أورلون" Mac Orlan فإن ضاحية "بيجو" بحي السود village Nègre قد نشطت بها التجارة، وأصبح نشطا غنيا بسبب اللفييف الأجنبي القادمين من كل الجهات، فهم اللذين يوزعون الأموال التي تستثمر في المقاهي، الحانات، وغيرها وعليه فالتجارة بسيدي بلعباس تسجل في خانة الحاجيات اليومية للفيلق الأجنبي الأول للمشاة. (26)

يشيد الكثير من الساسة والمؤرخين الفرنسيين بالدور الذي لعبه اللفييف الأجنبي في كثير من الأمكنة والأزمنة والطريق الذهبي والنجاح الباهر الذي حققه. صحيح أنه لعب دورا رائدا في الاستيطان بالجزائر عامة وسيدي بلعباس خاصة لكن الطرق والوسائل التي استخدمها كانت على حساب الأهالي، وسجله الحافل ملطخ بدماء الجزائريين، وسلب خياراتهم، وقمع انتفاضاتهم إضافة إلى المجازر التي اقترفها في حق المتظاهرين يوم 08 ماي 1945م، وهذا طبيعي

لأن جيش اللفييف مكون معظمه من مجرمين اقترفوا جرائم مختلفة قبل تجنيدهم، وآخرون أرغمهم الجوع والبطالة للانضمام لهذا الفييلق الأجنبي .

الهوامش

- (1) Pierre Mac Orlan : la légion étrangère paris- édition Flammarion . 1933 . p 09.
- (2) Ainad Tabet : Histoire d'Algérie : Sidi Bel-Abbès : de la colonisation à la guerre de libération en zone 5, Wilaya V : 1830 – 1962 . ENAG 1991. pp 67 - 68.
- (3) Mac Orlan : Op . Cit . p 80.
- (4) Ainad Tabet : Op . Cit p 68.
- (5) Mac Orlan .Op. Cit p 10.
- (6) Ainad Tabet Op .Cit . p 65.
- (7) Mac Orlan Op . Cit pp 11 - 12.
- (8) Ibid. pp 18 - 19.
- (9) Ibid. pp 21 - 23.
- (10) Ainad Tabet Op . Cit p 69.
- (11) Ibid. P 72.
- (12) Léon Bastide : Bel-Abbès et son arrondissement. Oran. Imp . Perrier . p 310.
- (13) Ainad Tabet . Op . Cit p 69.
- (14) Ibid . p 70.
- (15) Pierre Dufour : (Historien militaire) « ville et région ». in revue Historien mai – juin 2002. p 54.
- (16) L'œuvre de la municipalité Bellat par la presse : ville de Sidi Bel-Abbès. Joseph Meneau. Imp. Ed 1935 p 232.
- (17) وضع العقيد "واترينغ" Wateringue حجر أساس بناء قاعة شرفية . في سنة 1888م وافتتحها العقيد زيني Zeni في سنة 1902م.
- (18) شيد النصب التذكاري في ساحة فكنة Vienot للفييف الأجنبي حيث يمثل كرة أرضية يحرسها جنود من اللفييف الأجنبي لأربع فترات زمنية مختلفة.
- (19) Bellat . Op . Cit . p 56.
- (20) Oran républicain 10.02.1945 N° 2863.
- (21) Mac Orlan Op. Cit . p 124.
- (22) Bel Abbès journal 25-03-1933 N° 145.
- (23) Jacques Gandini : Sidi bel Abbès de ma jeunesse 1935 -1962 nice (France) éditions : jacques Gandini 1998 pp 21 - 23.
- (24) Echo d'Oran 25-02-1957 N° 24266
- (25) D.A.W.O : Rapport de Police . 01-10-1943 N° 1100/C
- (26) Mac Orlan : Op . Cit, p 136